

غريب الهوى في عيد القهر للدكتور زكي مبارك

أذكرُ يا قلبي ؟

أذكرُ أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (الميد الكبير) ، وأن أهل سنترس يقولون : (عيد القمر) كأنما عثر عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟
ليت شعري أظلم أهلنا وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لي أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبي

أما أهلنا فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديمهم من وجه أبي ؛ وكان لك أهل يا قلبي ، ولكن أخبارهم غابت عني منذ أزمان . فإن كانت عندك أخبار فحدثني عنهم ، فما أحب لك أن تعيش في دنياك عيش الغريب !
لا تكتم عني شيئاً يا قلبي ، فما لك في الدنيا آسٍ سواي .

أما رأيت كيف كانت أحداث الناس في هذا المساء ؟ فما لقيت أحداً من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألتني عن صحة ليلي . وما أذكر أبداً أن أحداً سألتني عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القتال ويسكتوا عن خبيثة القتل ! والويل كل الويل للغلوب

إن ليالي الأعياد ترجمني إليك يا قلبي

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المؤلف أن يزور الناس المقابر وفي أيديهم المصاييح ؟ وهل تذكر أننا سألتنا مرة عن الحكمة في حمل المصاييح في الليلة القمرية ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً في هذه الليلة ، وأخرج مملك زيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التي دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فإني أخشى أن تكون المقابر صنمت بأحلامك ما يصنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب !

لهذا كان بين شوبهور وكثير من الشباب القارئيين عندنا نسب قريب في أوائل هذا القرن العشرين . ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع نارة ومن أثر التشاغل ناراً ، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذي لا يحصى عنه مع تعاقب الأيام وتمدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان في القول ما يشبه الفكاهة والدعابة ؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجازاة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب . ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته ، فلنكن هذه من دعابات الزمن معه ، ومن وفاء الزمن له في قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات ، وهي مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره . فن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه ، وعرف مكان الصدق في المطابقة بين الروحي ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها . ومجل تلك الفلسفة في سطرين : أن الإرادة هي صاحبة السلطان في أعمال الأحياء وحركات الحياة ؛ وأن الإنسان يلمس الأسباب والبراهين لأنه يريد ، ولا يريد لأنه يلمس الأسباب والبراهين ؛ وأن الفكرة تلتقي الإرادة وتشل الحركة وتنتهي بالحياة إلى سكون كسكون « الثرفانا » عند الهنود ؛ وأن الإرادة تلتقي بالفردية ، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة في السكون كله . ومن ثم يجي الفن والدين والنبوة على رأس الفكرة ومن وراء الإزادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات ، فالصير الذي يطوبنا جميعاً ويطوى أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبهه الفناء

وفي مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين المرض والجوهر في هذه المطابقة . وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده في الثاني والعشرين من شهر فبراير أن نرجي إلى ذكره تحية المودة والإكبار ، وأن نهتف به : مرحي ومرحباً صديقنا القديم من جديد !

عباس محمد العقاد

حدثني أين دفنت أحلامك ، فاني أعرف أنك قليل البخت
في دنياك . ولو كان لك بخت لما جاز أن تبنت مشرد الأمانى
في ليلة عيد

قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أذكر ما صنعت في سبيلك ؟

لقد فررت بك من سمير الحب في القاهرة ، وتقلتلك إلى
بغداد : دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان
اسمها من أسماء الأضداد ؟

لقد نجهمت أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ،
واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت :
لا بأس ، فهي هدنة يستجيم فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون
حين يرجع إلى القاهرة . ولكنك استوحشت وأخذت تفتش
عن « عيون المها بين الرصافة والجسر » وقد انخدعت لك فتركتك
ترود صرائع النزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد
لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة وأسرتك
عيون المها بعد أسبوعين اثنين من قدومنا ببغداد

قلبي !

لقد كان يمز على أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن
الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمى فتصيب ، ولكني
ما كنت أحب أن أحلك جريحاً محطاً إلى الأنامل الرقاق التي
تمت في تضديد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان
يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب طبائرها
على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق
من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل
النهار بالليل في سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه
المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتق الله في الناس ؟ من كان
يظن أن ينعم كرم الضيافة في بغداد حتى يستبيح طبائرها
انقباض قلبي غريب لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل في بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صحاح القلوب ، وأعود إلى وطني
بقلب ممزق لم يبق منه غير أطيايف من الأشلاء

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تنف عيناى . أ كذلك تكون
ليالى الأعياد ، يا بغداد ! ليتنى أعرف أين يقيم اللصوص الذين
سرقوا النوم من جفونى ! ليتنى أعرف أين يقيم أولئك اللصوص
فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم في غفوات الليل !

بغداد !

خذى من نوى ما تشائين ، بل خذى من دمي ما تشائين ،
فلن أنسى ما حبيت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون :
عيون المها ، على قتلي ؛ فان من الشرف أن يكون المرء قتيل
المهنا في بغداد

إي والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهل تعرف
الظباء التي كانت تتمرص طريق لتصرعني أنني لا أزال بين الأحياء ؟
أنا أدعوها إلى مناضلتى مرة ثانية ، وموعدنا بهو أمانة
العاصمة يوم الأربعاء

أحبابي في مصر الجديدة والزمالك !

ناموا هائنين وادعين ، وانهبوا ما شئتم من أحلام الأمانى ،

فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق

أحبابي في بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يضمن أحداً غيرى حين قال :

وكل محبٍ قد سلا ، غير أنني غريب الهوى ، يا ويح كل غريب !
زكى مبارك

أطلب مؤلفات
الاستاذ الدكتور
وكاتب
الاستاذ الصالح
من : مكتبة الرشد ، شارع الفلكي (باب اللزق)
دمشق ، المكتبات العربية المشرفة